الفصل العاشر

الطوطميـــة
Totemism

«الطوطم» ***Totem*** اصطلاح ظهر في نهاية القرن السابع عشر، حين نشر «لانج» ***Andrew Lang*** كتابه عام **1791**. والكلمة فيما يبدو استمدت من هنود «الأوجيبوا» ***Ojibwa*** إحدى قبائل أمريكا الشمالية، حيث إن كل فرد إنما يدخل بطريقة أو أخرى في علاقة بحيوان أو نبات أو جماد والذي يعتبر فيما يقول «كلود ليفي شتراوس» ***Claude Lévi-Strauss*** بمثابة الروح الحارسة، ومن ثم تشعر الجماعة الاجتماعية، عشيرة أو قبيلة بنوع من الانتماء أو النسب الخاص حيث تعتبره السلف الأسطوري.

إن مفهوم الطوطمية يعني شكل من التنظيم الاجتماعي المرتبط أساساً بالطوطم، ويمكن القول إن الطوطمية تقوم في أساسها على مبدأ ديني، حيث يعتقد أفراد العشيرة أنهم منحدرون من الأصل الطوطمي ويعتبرونه أباً روحياً لهم، ينزلونه منزلة التقديس ويعتبرونه إلهاً يعتقدون أنه سبب وجودهم وسر بقائهم، يستمدون منه الحياة والقوة والأمل، ويرون أن روح الطوطم منبثقة في كل فرد منهم، تحل في كل نشاط مهم مرتبط بكيانهم[1].

كما أن نظرية «دوركهايم» ***Durkheim*** عن الطوطمية توضح أن الطوطمية إنما تمثل شكل خاص من ظاهرة عامة تسود المجتمع الإنساني، ويعتبر دوركهايم الطوطمية نوعاً من الشعائر الدينية[2].

---

[1] د. أحمد الخشاب: دراسات أنثروبولوجية، القاهرة **1968**، ص **483-484**.

[2] حول الطوطمية راجع: نشأة الدين للدكتور علي سامي النشار حيث توجد دراسة وافية حول هذا الموضوع.

وأول من ربط بين الطوطمية وتاريخ البشرية الأسكتلندي «ماكلينان» *MacLennan* كما درسها «لويس مورجان» *Lewis Morgan* في كتابه (المجتمع القديم) 1887، ثم «فريزر» *J. Frazer* حين نشر كتابه عن الطوطمية، ثم جاء الأسكتلندي «روبرتسون سميث» *Robertson Smith* ثم تناولها الأسترالي «جيلين» *F. J. Gillen* والإنجليزي «بالدوين سبنسر» *Baldwin Spencer*.

ينقسم الجنس البشري وفقاً للطوطمية إلى فئات حيث ترتبط جماعات ثقافية معينة بكائن أو بشيء محدد أي «طوطم» أو كما يقول فريزر هي: «نوع من العبادة»، أي أنها رمز للإله أو المبدأ الحيوي للمجتمع، فيما يقول «إيفانز بريتشارد»، باختصار: الطوطمية تشير إلى نوع من العبادة لحيوان أو نبات أو جماد يعتقد أن الأسلاف قد انحدروا منه وتجسدت فيه روح العشيرة أو القبيلة[1].

العشيرة والطوطم

يظهر من الدراسات التي جرت عن الطوطمية أن القبائل الأسترالية تتألف من عدة عشائر، وتمتاز العشيرة هذه بميزتين:

الأولى: إن الأفراد الذين ينتمون إلى العشيرة يعتبرون أنفسهم أقارب، والقرابة لا تقوم على الأبوة والأمومة والعمومة والخؤولة، إنها ليست قرابة الدم والنسب والولادة، بل هي قرابة الاسم الذي يجمعهم. وهذا الاسم المشترك هو الذي جعلهم أفراد أسرة واحدة يساعد بعضهم بعضاً، ويثأرون لدم المقتول منهم ويشتركون جميعاً في الحداد عليه كما لو كان الميت أقرب إليهم نسباً.

الثانية: إن الاسم المشترك ورابطة القربى هو اسم الطوطم الذي اتخذته العشيرة شعاراً لها، ولفرط تعلقهم بالطوطم يتصورون أن لهم علاقة القربى بالحيوان أو النبات الذي أخذ منه اسم الطوطم. فالطوطم هو الذي يميز اسم العشيرة وهو شعارها ومثلها وحاميها هي بمجموعها وبأفرادها[2].

إن كلمة طوطم التي ذكرها لأول مرة لانج هو الاسم الذي أطلقته قبيلة «الغونكين» *Algonkin* الأمريكية على المادة التي اعتبر أحد عشائرها اسماً لها.

---

[1] د. فاروق إسماعيل: تأثير الإسلام على الوثنية، ص 103-104.

[2] طه الهاشمي: تاريخ الأديان، ص 83-84.

والحيوانات هي أكثر ما اتخذ طوطماً، ويليها النباتات، أما اتخاذ الجماد طوطماً فنادر. وقد ذكر «هوايت» *A. Howitt* أن من بين أكثر من خمسمئة طوطم، نحو أربعين منها من الجماد وغيره كالمطر والبرد والقمر والشمس والريح والربيع والصيد والشتاء والجفاف والنجم والرعد والنار والدخان والماء والبحر... ومن بين الخمسمئة اسم للطوطم سجل هوايت لعشيرتين الشمس ولاثنتين القمر ولثلاثة أخرى الرعد ولاثنتين منهما البرق. أما المطر فقد ورد اسمه كثيراً عند العشائر. ومما يلفت النظر أن الشعوب البدائية لم تهتم كثيراً بالأجرام السماوية وما يحيط بها من أحداث الأمر الذي اهتمت به الأقوام التي تقدمت في الحضارة إلى حد ما. وبوجه عام، يكون الطوطم حيواناً كاملاً ونباتاً كاملاً. ولكن يحدث أن يتخذ جزءاً من الحيوان أو عضواً منه طوطماً. وهذا الشكل على ندرته يدل على أنه ناتج عن انقسام العشيرة كأن الكنغر (وهو حيوان أسترالي لبون) طوطم عشيرة فيتكاثر أفرادها وينقسمون إلى طائفتين فيغدو فخذ الكنغر مثلاً طوطم الطائفة الجديدة. ومن العشائر من يتخذ شخصاً خرافياً طوطماً له وتعتبره جدها وتنسب إليه بعض الأساطير وتضع له اسماً خاصاً كالبطل والشجاع أو الأب الضاحك. وبما أن الطوطم يميز العشيرة من العشائر الأخرى فإذا أخذت جماعتان اسم طوطم واحد دل ذلك على أنهما تنتسبان إلى عشيرة واحدة.

إن الارتباط بين الفرد والطوطم يضمن للجانبين منافع متبادلة، فالطوطم يحمي الإنسان، والإنسان يحترم الطوطم، وذلك بأن يمتنع عن قتله إذا كان حيواناً وقطعه إذا كان نباتاً. والطوطم يختلف عن الوثن لأنه مجموعة أشياء لا شيءٌ بذاته. فإذا كان الغراب طوطم العشيرة فإن نوع بأجمعه طوطم تلك العشيرة. ولا يقتصر تابو (التحريم) الطوطم على قتله أو ذبحه، بل يحدث أحياناً أن لمس الطوطم أو حتى رؤيته يعتبر تابو أي محرماً. والذين يخرقون حكم التابو الذي فرضته الطوطمية يعاقبون بصورة تلقائية بالمرض والموت. وإذا وجد الطوطم ميتاً حزنوا عليه وقاموا بمراسم دفنه كما يحتفلون بدفن فرد من أفراد العشيرة.

وإذا اقتضى الأمر قتل الطوطم فلا يتم ذلك إلا بعد أن تجري مراسم طلب العفو منه. وإذا كان الطوطم حيواناً خطراً (مفترساً أو ساماً) يعتقد الناس بأنه

لا يضر، فإذا وقع ما يخالف هذا الاعتقاد فيحرم الشخص الذي هاجمه الحيوان ويعد من المنبوذين. وفي حالة المرض يساعد الطوطم المريض وينذر العشيرة بما قد يحدث.

وفي الاحتفالات بالرضع وبلوغ سن الرشد والجنازة تجري كثير من الطقوس للتمثل بذات الطوطم، فيتنكرون بهيئته ويرقصون مقلدين حركاته. أما الطوطمية بوصفها نظاماً اجتماعياً فتتجلى قبل كل شيء بما يوجد في أحكامها من محرمات شديدة وزواجر كثيرة. فيعتقد أفراد العشيرة أنهم أصبحوا إخواناً وأخوات، ويجب عليهم أن يتعاونوا ويدافعوا عن بعضهم. فإذا قتل أحدهم تضطر قبيلة القاتل إلى تحمل مسؤولية القتل وتتضافر جهود عشيرة المقتول للأخذ بالثأر. وكذلك فإن روابط الطوطمية أقوى مما نعرفه من روابط القرابة في الأسرة.

ومما حرّمه البدائيون من أتباع الطوطم التزاوج بين أفراد العشيرة أو أن تكون بينهم أي علاقة جنسية. وهذا الحكم يميز الطوطمية عن سائر المنظمات الدينية. ومن أهم مسائل الطوطمية معرفة منشئها والتحريم الذي وضع لمنع الزنا أي تناكح أعضاء العشيرة أي الصلة بين موضوعات الطوطم وتحريم الزنا. ومهما يكن من أمر فإن الشعوب البدائية نفسها لا تتذكر الأوضاع الأصلية والشروط الأصلية، ولما كنا لا نستطيع الوصول إلى المشاهدات العيانية فليس لنا أن نلجأ إلى الفرضيات[1].

أسس الطوطمية وأحكامها

أولاً- أسس الطوطمية، وتتلخص فيما يلي:

1- يتصور أفراد العشيرة أنهم يرتبطون بالطوطم برابطة غيبية وأنهم نزلوا من صلبه. وكذلك يصبحون أقارب لأنهم ولدوا من جد واحد ألا وهو الطوطم. 2- ولما كان الطوطم بذاته مقدساً فتصبح العشيرة مقدسة وكذلك أفرادها الذين تسموا باسمه فإنهم يصبحون أيضاً مقدسين، الرجال والنساء على السواء. ولهذا لا يجوز لهم أن يتزاوجوا، لأن هذا التزاوج (تابو) أي محرم كالزنا. ويعتبر الزواج من العشيرة من أشد المحرمات ولذلك نشأت قاعدة الزواج من خارج العشيرة.

---

[1] فرويد: التوتم والتابو، ص 62.

ثانياً- أحكام الطوطمية: ليس الطوطم اسماً للعشيرة فحسب، بل هو رمزها وشعارها لذلك يحمل كل فرد من العشيرة إشارة طوطمها دليل انتمائه إليها. وفي المعاهدات التي كانت تعقدها العشائر مع الأوروبيين والأمريكيين يختمون عليها بإشارات الطوطم. كما كان الأشراف في عهد الإقطاع يضعون شعار الأسرة على أسلحتهم وعرباتهم وأعلامهم ...إلخ، كذلك تضع بعض العشائر في أمريكا علامات الطوطم فوق رماحها كرايات لكتائب الجيش. ويرتدي بعض رجال العشائر جلود الحيوانات التي اتخذوها طوطماً، ويحشو بعضها جلد الطوطم بالقش ويعلقونه فوق الأبواب. ومن العشائر الأسترالية من تنقش صورة الطوطم على تابوت الميت أو تدفنه في جوار مكان نقش عليه صورة الطوطم. ومنهم من يشم بدنه بصورة الطوطم، ومنهم من يتزيا في الأعياد الدينية بزي حيوان يمثل الطوطم. ويخال للباحث أن العشائر أرادات بهذه الإشارات والعلامات والرسوم أن تشترك مع الطوطم في جميع شؤون الحياة وذلك ليحميها من شر الحوادث ويكون عوناً لها في النائبات.

والطوطمية ككل دين لها مقدساتها ومحرماتها، وقد ظهر للعلماء الذين درسوا أحوال القبائل الأسترالية الوسطى، ولاسيما قبائل «أرونتا» ***Arunta*** و«لوريتجا» ***Luritcha*** أنها تستعمل بعض المواد في طقوسها وعبادتها. ويسمي الأرونتيون هذه المواد باسم «شورينغا» ***Churinga*** ومعناها المقدس الذي لا يجوز مسه أو التقرب منه أو مشاهدته إلا لمن سمح لهم بذلك، وهي تصنع من الخشب والصوان بأشكال مختلفة، وتكون في الأغلب بيضوية الشكل طويلة. وتحتفظ كل جماعة طوطمية بعدد من الشورينغا، نقشت فيها أو رسمت عليها صورة الطوطم. وهذا الرسم هو الذي يعلي قدرها ويرفع منزلتها (وهذا رأي دوركهايم، أما سبنسر فيرجع السبب إلى الاعتقاد بأن روح أحد الأجداد حلت فيها).

ولما كانت الشورينغا من المقدسات، لذلك لا يذكرها الأرونتيون إلا بكل وقار واحترام ولا يكاد يسمعهم الحاضرون. ولا يحل للنساء لمسها أو مشاهدتها لأنهن غير طاهرات. وكذلك للبنين الذين لم يبلغوا السن التي تؤهلهم للاشتراك في المراسم الدينية، ولكن يجوز لهم التمتع برؤيتها في حالات خاصة. ويخبئ الأرونتيون الشورينغا في أمكنة خاصة داخل الأرض ويسدون فتحتها بأحجار يكدسونها بشكل يتعذر على من يمر بها من غير الأرونتيين معرفتها.

وتسري قدسية الشورينغا إلى المكان الذي حفظت فيه، لهذا يحرم على النساء والبنين التقرب منه، وكذلك تسري قدسيتها إلى ما يجاورها من الأماكن، فلا يجوز للدنس أن يمسها أو يتقرب منها. ولا يجوز فيها القتال، ويسلم العدو من المطاردة إذا لجأ إليها، وكذلك يسلم الصيد ويحرم اقتناصه. وتشفي الشورينغا الأمراض، وتداوي الجروح وتشجع العشيرة في القتال، وتجلب لها النصر، كما أنها تزلزل أقدام العدو وتقهره. وتعرض الشورينغا في الاحتفالات الدينية ويتبرك بها الناس. ومنهم من يطلي جسده أو يمسح يديه بالدهن الذي طليت به اعتقاداً منهم أن روحاً من أرواحها تحل بهم. وكذلك يعتقد الناس أن قوة خصائصها تسري إلى الكهنة وإلى الحاضرين في الاحتفال، وهم يغطونها بالريش ويديرونها، فينتشر الريش على الحاضرين وبذلك تنتقل قوة الشورينغا وخصائصها إليهم.

ويعتقد الناس بأن مصير العشيرة مرتبط بها، لهذا تعظم المصيبة وتكبر إذا استولى عليها العدو. وإذا طلب الغالب تسليم الشورينغا إليه واضطر المغلوب إلى القبول، عم الحزن العشيرة وانتشر الفزع فيبكي الرجال وتنتحب النساء ويستمر الحداد في العشيرة أسبوعين يقضونهما بالنواح والعويل كما لو فقدوا أعز عزيز. ويتولى رئيس العشيرة أمر الحراسة عليها، ولا يسوغ لأفراد العشائر الأخرى زيارتها إلا بإذن من الرئيس وإذا فعلوا فباحترام. وتوجد مادتان مقدستان أخريان لدى قبيلة أرونتا وهما «النورتونجا» ***Nurtunja*** و«الواتينغا» ***Watinga***. أما «النورتونجا» فهو رمح أو حزمة رماح أو عمود لفوا به شدات من الحشيش وربطوها بخيط من الشعر، وزينوا العمود أو الرمح بريش الصقر. وأما «الواتينغا» فعبارة عن عصا أو عمود ركز في الأرض يربط به أحياناً عصا أفقية على شكل صليب وربما ربطوه بعصا أخرى. وقد يغطون الواتينغا بالريش لئلا يراه الناس، وبذلك يشبه الواتينغا الراية. وتعرض النورتونجا والواتينغا في الاحتفالات والأعياد ويصبحان مركز الاحتفال والرقص حولهما. وإذا كانا بيد الكاهن فالاحتفال والرقص يجريان حوله. ولا يشترك الشباب في الاحتفالات الدينية إلا بعد أن يقوم بتقديس النورتونجا بأن يؤخذ إليها، فيقول له المشرف: «انظر هذا النورتونجا إنه أبوك» فيقبّله ويحق له بعدها المساهمة في الاحتفالات. ويعتقد الناس أن النورتونجا تحرس وتحمي ما ركزت بجانبها لذلك يركزونها قرب البيت أو الخيمة. أما الواتينغا فيبدو أنها بمثابة راية تحملها العشيرة

في القتال، فتمنح النصر لأنها والواتينغا تمثلان الطوطم، ومما يؤيد أن القدسية ناشئة من رسم الطوطم هو اعتقاد القبيلة بأن رسم الطوطم على الحجارة يجعلها مقدسة، وتسمى وقتئذٍ (شورينجا إلكينا ***Ch-ilkina***) بمعنى الرسم المقدس أو الصورة القدسية، ويطلق هذا على ما يحمله الكاهن وحاشيته في الاحتفالات ويعتقد الطوطميون بأن الموجودات المختلفة ما هي إلا أشكال متحولة متبدلة للطوطم، فعشيرة الغراب مثلاً تضم الموجودات التالية: المطر والصاعقة والبرق والسحاب والبرد والشتاء وهذه كلها أشكال متحولة للغراب. وينقسم المجتمع الطوطمي إلى عشائر فقبائل. وتنقسم القبيلة أحياناً إلى مجموعتين من العشائر يؤلف كل منهما «فراتيري» أي اتحاد. والعشائر والاتحادات والقبائل جميعها تكون الشعب الطوطمي. وبما أن لكل من هذه الأقسام طوطماً أو أكثر، تتعدد الطواطم في الشعب، وتنحصر حدود الكون في نظرهم بالأرض التي يسكنها الشعب وتشمل كل ما فيها من حيوان ونبات وجماد وبشر، وبذلك تصبح جميع الكائنات من قمر وشمس ونجم وحيوان ...إلخ ضمن القبيلة. ومن هنا نشأ اعتقاد الطوطميين بأن كل ما هو موجود مندمج بشعبهم.

وبالإضافة إلى طوطم القبيلة المشترك فإن لكل فرد من العشيرة طوطم خاص به ويأخذ منه اسمه وحمايته ويكون حيواناً في الأغلب أو جماداً أو عضواً من أعضاء الجسد كالكبد والرأس والرجل. وقد تأكد الباحثون من ذلك في بعض قبائل أستراليا وأكثر قبائل سكان أمريكا الأصليين. ولأجل أن يظهر الشخص تعلقه بطوطمه يكتسي جلده أو يحمل ريشه إذا كان طيراً، أو يرسم صورته في جسده وينقشها على سلاحه. ويعتقد الشخص بأن خصائص طوطمه تنتقل إليه، فإذا كان الطوطم عقاباً يمتاز الشخص بالنظر من بعيد ويستطيع أن يتنبأ عن المستقبل. وإذا كان طوطمه دباً يعتقد أنه يجرح في القتال لأنه بطيء الحركة كطوطمه، وإذا كان الحيوان الطوطم حقيراً فيكون الشخص مهاناً. وقد بلغ هذا الاعتقاد في الأشخاص أنهم يعتقدون بأنهم ينقلبون إلى الحيوان الطوطم في حالة الخطر وبذلك يتقون شر عدوهم، وإذا مرض الحيوان يمرض الشخص وإذا مات تتعرض حياة الشخص إلى التهلكة.

والفارق بين طوطم العشيرة المشتركة وبين الطوطم الشخصي أن الأول يرثه

الشخص من أمه أو من أبيه، أما الطوطم الشخصي فيختاره الشخص في احتفال ديني. ومما يذكر أن هناك دلائل على أن الفرد يتمسك بطوطمه الشخصي أكثر من تمسكه بطوطم العشيرة، فقد ذكر بعض المبشرين أن من اعتنق المسيحية من الطوطميين قد يترك الطوطم المشترك ولكنه يظل متمسكاً بطوطمه الشخصي. وهناك طوطم ثالث هو الطوطم الجنسي فيكون لكل من جنس الرجال وجنس النساء طوطم خاص. ويزعم الرجال أنهم أولاد ذلك الطوطم، وتزعم النساء أنهن بناته. ومن واجب كل من الجنسين احترام طوطم الجنس الآخر فلا يأكله ولا يشتمه وإذا حصل ذلك فالخصام ينشب بين الجنسين في العشيرة[1].

نظرية دوركهايم في الطوطمية

مرَّ بنا أن «دوركهايم» *Émile Durkheim* أول من قال إن الطوطمية دين، وليست نظاماً اجتماعياً. فقد ذكر في كتابه (الأشكال الأولية للحياة الدينية) أن في الطوطمية ثلاثة عناصر مقدسة وهي: العشيرة، والمادة الممثلة للطوطم كالشورنجا، والشخص المنتمي للعشيرة الممتاز بطوطمه. وأقدس هذه العناصر هو المادة الممثلة للطوطم ومرجع هذه القدسية «مفهوم» أو «مبدأ» جعل القدسية تشمل الفرد والعشيرة والطوطم، وهو قوة خفية غير مشخصه ولا اسم لها. ولا توجد هذه القوة كاملة في أي عنصر منها، ولكنها تشترك جميعاً في تكوينها، ومن هنا كانت هذه القوة مستقلة تمام الاستقلال عن الشخصيات التي تجسدت فيها وأصبحت مقدسة ولذلك فهي مستمرة ودائمة، كانت موجودة من قبل وستبقى خالدة من بعد، لا يلحقها تغيير مهما تعاقبت الأجيال والقرون.

وإذا استعملنا كلمة الإله فإنها تدل على تلك القوة في اعتقاد الطوطمية، وهي ليست اسماً ولا أسطورة ولا تاريخاً. وهي موجودة في أشياء لا حصر لها. وليست هي بعد ذلك في العشيرة والأفراد أو الطوطم، بل إنها موجودة وراء تلك الأشياء. ويبدو من ذلك أن الطوطم شيء غير مادي وإن أخذ أشكالاً مادية. وهكذا يستنتج «دوركهايم» أن الباعث الحقيقي للعبادة إنما هو تلك القوة. ويتضح مما سبق أن الأستراليين إذا نسبوا الفرد إلى عشيرة الغراب لا يقصدون حقاً أنه غراب، لأن الإنسان البدائي مهما

---

[1] طه الهاشمي: تاريخ الأديان، ص 96-97.

انحطت مداركه فإنه يفرق بين الإنسان والغراب، وإنما يريدون به تلك القوة التي اتحدت بهم. والقوة المذكورة ذات صفة جسمانية وروحانية معاً. وإذا سئل أحد الطوطميين عن اشتراكه في الاحتفالات الدينية أجاب بأن أجداده كانوا يحضرونها وهو مكلف بالاقتداء بهم، وهكذا صارت تلك القوة سبباً للتآخي والتعاون بين أفراد العشيرة، حتى جعلتهم يثأرون لدم المقتول منهم، ولا يزال لمفهوم تلك القوة أثر بين الأقوام التي أخذت تترك الطموطية في سبيل الاعتقاد كقبائل أمريكا. إن بعض العشائر من قبيلة «سيوكس» ***Sioux*** الأمريكية الأهلية التي ما يزال نظام العشيرة سائداً فيها تسلّم بوجود قوة قادرة تسمى «واكان» ***Wacan*** وهي ليست كائناً شخصياً ولا تتمثل بأي شكل من الأشكال. وهناك قبيلة أخرى تسمي القوة المذكورة «أورندا» ***Orenda*** وهي مماثلة (لواكان السيوكس)، ويعتقد الناس بأنها ترسي الجبال وتجري الأنهار وتنبت الأشجار وتخلق الإنسان والحيوان، وتسيّر السحاب وتكوّن وميض البرق ودوي الرعد وإذا اتفق أن أفلت الصيد من يد الصياد قالوا إن «أورندا الصيد» غلب «أورندا الصياد» ولهذه القوة أسماء أخرى لدى قبائل أخرى.

إن «الميلانيزيين» الذين تركوا الطوطمية وتقدموا في مراتب الاعتقاد يطلقون على تلك القوة اسم «مانا» ***Mana***، والمانا هي القوة الممتازة عن جميع الموجودات تجلب الخير والشر، فمن أراد أن يعيش سعيداً فما عليه إلا أن يستجلب عطف المانا وفق رغباته. ويورد «دوركهايم» ***E. Durkheim*** قول «كودرنجتون» ***Codrington*** عن المانا: «يعتقد الميلانيزيون بوجود قوة مجردة تماماً عن أي قوة مادية وهي ذات تأثير سواء في عمل الخير أو في عمل الشر، وينتفع الإنسان انتفاعاً كبيراً بحيازته هذه القوة وبالسيطرة عليها، وهي قوة ذات تأثير ونفوذ من نوع غير مادي وخارق إلى حد ما ولكنها تتجلى بقوة مادية بما يملكه الإنسان من قدرة. وهي ليست موجودة في شيء معين ولكنها موجودة في كل شيء، ويتلخص دين الميلانيزيين بتملك المانا وينتفعون بها بالذات وينفعون الآخرين بها[1].

ويصل «دوركهايم» في مطالعاته إلى أن الطوطمية هي فكرة المانا في حالتها الابتدائية، احتفظ الطوطميون بوضعها الأصلي وتطورت عند الميلانيزيين فظهرت

---

[1] د. علي سامي النشار: نشأة الدين، مركز الإنماء الحضاري - حلب، ط 1، 1995، ص 115- 116.

بمظهر راق، أما طوطم العشيرة والطوطم الشخصي فهما من ظواهر أوضاع المانا. وليست العبادة عند الطوطميين لنفس الطوطم أو لتمثاله، بل للقوة المتعالية التي يظنون أنها حلت فيهما. وتبدو أوضاع هذا المعتقد في الشعوب الأمريكية الشمالية لأنها تقدمت في الاعتقاد أكثر من الشعوب البدائية الأخرى. أما العقائد الدينية الأخرى كالروحية والطبيعية والوثنية فإنها تمثل أوضاع الطوطمية المتكاملة، ومفهوم الطوطم عند الأقوام المعتقدة بتلك الاعتقادات الدينية هو المانا أو الروح والجان، أو مظاهر القوى الطبيعية، أو المعبود الممثل بالوثن أو بالصنم، أما الأبطال أي الآلهة الخرافيون الوارد ذكرهم في أساطير الأقوام المشتركة فهم أشخاص تمتعوا بسلطان المانا التي حلت فيهم ولهذا فإن عبادة بعض الأقوام للشمس والقمر والنجوم إنما هي عبادة للمانا التي يظنون أنها اندمجت فيها، وإذا حلت المانا بأي شيء أصبح مقدساً وإن كان تافهاً في ذاته. وإذا كانت بعض الأقوام قد عبدوا الروح فما ذلك إلا لأنهم اعتبروا أن أصحابها كانوا في حياتهم متمتعين بسلطان المانا، والذي يتبين من معتقد الأقوام البدائية أنهم كانوا جميعاً متفقين في أوصاف تلك القوة المتعالية سواء أكانت مانا أم واكان أم أروندا.

إن قبيلة «السيوكس» في أمريكا الشمالية ترى أن «الواكان» هو القوة التي يمكن بها إيضاح مختلف الحوادث الطبيعية. والواكان في نظرها منشئ كل أنواع الحياة فيكون كالمانا، إن الواكان باعتقادها علة كل ما يحدث في الكون. وكذلك تعتبر قبيلة «الإركوا» ***Irqouois*** قوة (أورندا) ***Orenda*** العلة الفاعلة لكل ما يتجلى من أحداث تحيط بالإنسان. والأورندا هي التي تجعل الريح تهب والشمس تشع، وهي التي تمنح الحرارة للأرض وتنبت النبات وتغدق على الإنسان بالقوة والمهارة والذكاء. ويصف الميلانيزيون (المانا) أيضاً بتلك الصفات، والإنسان بفضل المانا ينتصر بالقتال وينعم بغلة بساتينه وحقله. وبفضلها تتكاثر قطعانه، والسهم الذي يصيب الهدف فيه (مانا)، وإذا امتلأت الشبكة بالسمك الوافر ومخر الزورق في البحر، فما ذلك إلا بفضل المانا. وهكذا يعتبر «دوركهايم» الواكان وأورندا والمانا الشيء نفسه، وهذه الأسماء الثلاثة هي التي تدل على مفهوم الطوطم[1].

---

[1] د. علي سامي النشار: نشأة الدين، مركز الإنماء الحضاري - حلب، ط1، 1995، ص 117-118.

كيف نشأت فكرة المانا الطوطمية؟

يدّعي «دوركهايم» أن الطوطمية نشأت من فكرة المانا، ويتساءل كيف ظهرت هذه الفكرة عند الإنسان البدائي؟ هل أن الطوطم هو الذي أيقظ في الإنسان فكرة التعبد والتقديس؟ وإذا كان الأمر كذلك فينبغي أن يكون الإحساس قد ولّد فكرة الطوطمية. ولكن «دوركهايم» يعترض على هذا الاستنتاج ويرى أن الإحساس لم يكن مصدر الطوطمية، إذ لو كان الإحساس هو الذي أوجد عبادة الطوطم في نفوس البدائيين لاتخذ البشر الأولون من الحيوانات الكبيرة والأشجار البواسق ومن مظاهر الكون الخارقة طوطماً لهم، إنها أدعى إلى إثارة انتباهه من الحيوانات الحقيرة التي اتخذها الأستراليون طوطماً لهم، كالدودة والضفدع والحرباء والفأر وغير ذلك. وليست هذه الحيوانات الحقيرة مما يثير انتباه البشر فيدفعه إلى التعبد، بينما هناك مظاهر طبيعية خارقة أقدر على تحريك شعور الإنسان كالنجوم والشمس والقمر والصاعقة... ومع ذلك فلم تتخذ طواطم إلا نادراً، ويبدو من ذلك أن الذي جعل الطوطم موضع عبادة لا اسمه ولا ذاته إنما شيء آخر، ولو كان الداعي إلى الاحتفالات الطوطمية ومعتقداتها الإحساس الذي أيقظه الطوطم، لوجب أن يكون الطوطم ذاته الشيء الأكثر تقرباً، وللعب الحيوان أو النبات عندئذٍ الدور الأول في الحياة الدينية. وبينما رأينا أن الحيوان أو النبات بذاته ليس هو محور العبادة، بل التمثال الذي يمثله وهو أكثر ما يقدسه الطوطميون، ويتبين من ذلك أن التمثال مصدر الأفكار والإحساسات الدينية في العشيرة. والتمثال يرمز إلى مبدأ، المبدأ الذي يتجلى بتلك القوة الخفية التي سميت بأسماء مختلفة، والتي لا تتناول النوع الطوطمي وأفراد العشيرة والتمثال فحسب، بل يمتد مجال عملها إلى أفق أوسع. وبما أن البدائي لم يستطع إدراكها في صورتها المجردة، مثّلها في صورة حيوان أو نبات أو في صورة شيء محسوس. فالطوطم إذن يمثل شيئين مختلفين، يمثل من جهة ذلك المبدأ أو المعبود ويكون مثاله الخارجي المحسوس، ويمثل من جهة أخرى العشيرة فيكون شعارها الذي يميزها عن العشائر الأخرى، وبهذه الاستنتاجات المتلاحقة يصل «دوركهايم» إلى النتيجة التالية:

إن الطوطم تمثال المعبود وتمثال العشيرة في وقت واحد، وبتعبير آخر إن معبود العشيرة في المجتمعات الطوطمية هو العشيرة بذاتها. إذ لو كان المعبود والعشيرة

شيئين مختلفين، لكان الشعار الذي يمثل المعبود يختلف عن الشعار الذي يمثل العشيرة. ولهذا وجب أن يكون معبود العشيرة هو العشيرة نفسها.

ويستنبط من ذلك أن العشيرة بتقديسها للطوطم تقدس نفسها أي تعبد نفسها. أما وقد وصل «دوركهايم» إلى هذه النتيجة، فيقتضي أن يشرح لماذا قدس الأفراد الجماعة (العشيرة) واعتبروها معبوداً. ولإيضاح ذلك يقول إن البشر الأول كانوا يعيشون في العزلة لأن موارد المعيشة وحالة المناخ في حينه لم تكن لتساعداهم على تكوين الجماعة. وكانت الأسرة تأوي إلى الكهوف وتعيش على الحيوانات التي تصطادها. ولعلها كانت تضطر إلى أكل بعض أفرادها. ولما تحسنت أحوال المناخ وكثرت حيوانات الصيد توافرت أسباب المعيشة. ولما بدأت الجماعة تتكون وتتعاون فيما بينها للتغلب على مشاكل الحياة، شعر الأفراد والأسرات بما قدمته لهم حياة الجماعة من خير في التعاون على الصيد والانتفاع من موارد الطبيعة والدفاع عن النفس، لأن الاجتماع من شأنه أن يولد قوة قاهرة يستحيل على الأسرات المنعزلة أن تنالها. والجماعة بتضامن أعضائها وتعاونهم تتغلب على مشقات الحياة. وهكذا يخضع الأفراد للجماعة ويسعون للتوفيق بين أعمالهم ورضاء الجماعة، وإذا لاحظنا هذا التأثير الذي تولده الجماعة في الأفراد، نستطيع أن نعرف كيف أيقظت الجماعة في نفوس البشر الأولين وجود قوى دينية خارجة عنهم ومسيطرة عليهم. ويستند «دوركهايم» بعد ذلك إلى ما ذكره السياح والعلماء عن أحوال الشعوب البدائية الأسترالية، ويشير إلى صفحتين من حياتهم الدينية: صفحة عطالة وركود، وصفحة نشاط وتهيج بالغ. والصفحة الأولى تظهر حينما يكون الأفراد متفرقين يعمل كلّ لنفسه، وتظهر الصفحة الثانية حينما يجتمعون حول التمثال يرقصون ويلعبون بوجد واستغراق. وقد كانت القوة المسيطرة في حالة الاجتماع مصدر إلهام لهم، فحاولوا تجسيدها بتماثيل الحيوانات والنباتات التي اتخذوها رمزاً للاجتماع، يلتفون حولها فيرقصون ويلعبون ويأخذهم الوجد حتى يقعوا مغشياً عليهم، وأصبحت شارتهم في الغزوات وحاميتهم في الصلوات. وما تزال هذه الشارة تمثل الراية التي تحارب الجيوش في سبيلها لأنها رمز الوطن وشعار الدولة. ومن الجدير بالذكر أن الإنسان البدائي تصور أن الاجتماع هو العالم الأصلي لما شعر به من تأثيرات

وانطباعات. وكان وقتئذٍ قاصر الإدراك وكل ما استطاع أن يفهمه أن الاجتماع مصدر ما يحس به من حالات غير عادية في الاحتفالات التي تقام حول الطوطم أي الشورينجا والنورتونجا والواتينغا. وكان من الطبيعي أن يعزو سبب الوجد الذي انتابه في الاجتماع إلى تلك التماثيل، لهذا أصبح لها المرتبة الأولى القدسية[1].

وبما أن تلك القوة الخارقة لن تتجلى إلا باجتماع الأفراد، فمن الطبيعي أن يتصور بأن لهم قوة تماثل قوة الطوطم، وهذا ما دعاهم إلى اعتبار الأفراد في المرتبة الثالثة من القدسية، وبسبب ذلك اعتبر الناس أن نوع الحيوان الطوطمي ونوع النبات أعلى منهم مرتبة في القدسية فكان في المرتبة الثانية. وبما أن القوة المذكورة سارية جداً فلا تتركز في نوع معين من الحيوان والنبات، إنما تتسرب إلى الموجودات سواء كانت قريبة من الكوائن الطوطمية أو بعيدة عنها، وقد تتسرب إلى ما يأكله الحيوان الطوطم أو إلى ما يشبهه من حيوان آخر أو ما له صلة بالموجودات المشتركة. وهذا سبب أن يكون للعشيرة طواطم أخرى بمرتبة ثانوية. وكذلك هذا هو سبب تصنيف جميع الموجودات بموجب العشائر التي تؤلف القبيلة وتقسم حسب طواطمها. أما اعتقاد الناس بأن اسم العشيرة مقدس فناشئ من أن الاجتماع يوقظ في نفوس الأفراد وجداً روحانياً. وبما أن الجماعات البدائية لم تدرك بأن الوجد والشعور بالقدسية نشأ من الاجتماع، وبما أنهم لم يروا في الاجتماع إلا طوطم العشيرة، فلذلك ظنوا أن نسيم القدسية هب من الطوطم. هكذا يتبين أن أساس الطوطمية يستند إلى أن التمثال قام مقام فكرة الاجتماع فصار رمز العشيرة وشعارها ومعبودها ومقتداها. ويبدو من كل ذلك أن الطوطمية عبادة الأفراد لجماعتهم إلا أن التمثال قام مقام العشيرة وقام المسمى مقام الاسم.

أما لماذا اختارت العشيرة الحيوانات والنباتات طوطماً لها؟ فيجيب «دوركهايم» على هذا السؤال: إن أحسن واسطة للاجتماع هو التمثال، إذ لا يعقل أن يتجمع الناس حول مادة مجردة لا يشاهدونها. والتمثال المادي محسوس ومفهوم. والعشائر لا يمكن أن تتعارف إلا بشعارات خاصة، وإذا أرادت أن تمتاز بأسماء رؤسائها أو باسم المحل الذي تسكن فيه، فيزول الشعار المميز بموت الرئيس أو بتبدل المحل.

---

[1] د. علي سامي النشار: نشأة الدين، مركز الإنماء الحضاري - حلب، ط1، 1995، ص 120- 122.

أما الاسم الثابت الذي لا يتغير فهو موجود من الموجودات التي لها صلة دائمة بالعشيرة. ولما كانت الجماعات البشرية في أول نشأتها تعيش على الصيد وتأكل النباتات من حشائش وجذور وثمار، فكان من الملائم لها أن تتسمى بأسمائها[1].

الألوهية والطوطمية

هنا يصل «دوركهايم» إلى تلك النتيجة القاطعة، التي اهتدى إليها بفضل مذهبه الاجتماعي، وهي أن الله والمجتمع ليسا إلا شيئاً واحداً. واستناداً إلى ذلك الفهم الدوركهايمي، فإن إله العشيرة أو الإله الطوطمي لا يمكن أن يكون سوى العشيرة نفسها، هذا الإله الذي يتصوره أفراد العشيرة ويرونه في رؤية عينية، أو صورة حسية تنطبق على أنواع محسوسة من النبات والحيوان، يقدسونها كطوطم.

فالجماعة إذن أو العشيرة، لم تعبد إلهاً خارجاً عنها، وإنما عبدت نفسها، بمعنى أن الديانة الطوطمية التي يعتبرها «دوركهايم» (أول ديانة في الوجود)، هي عبادة المجتمع لنفسه. حيث إن العشيرة الطوطمية هي التي أيقظت في الفكر البدائي الإحساس بالألوهية، بما للعشيرة من تأثير بالغ على أفرادها. هذا الأثر العميق الذي يشبه إلى حد كبير التأثير الديني الذي تفرضه فكرة الألوهية بما لها من سلطان وقهر على إرادة المؤمن وطاعته وخشيته.

والجماعة بما لها من أثر وإجبار، إنما توقظ فينا فكرة «المقدس» تلك الفكرة السامية التي نقف إزاءها موقف الرهبة والقربة، ونتجه إليها في «طمأنينة» و«محبة».

هكذا فسَّر «دوركهايم» فكرة الألوهية، تلك الفكرة السامية المطلقة، فيردها إلى أصل طوطمي غريب عنها، ويضفي عليها طابعاً يتمشى مع أصول مذهبه الاجتماعي. الأمر الذي يدعونا إلى القول بأنه إذا كان إله «أفلاطون» هو مثال الخير، وإله «أرسطو» هو العلة الأولى والموجود بالضرورة، وإذا تصور «ابن سينا» الوجود الإلهي على أنه واجب الوجود، فإن التصور «الدوركهايمي» لطبيعة الألوهية هو تصور «اجتماعي طوطمي»، والإله عنده إنما هو الإله الطوطم.

---

[1] المرجع السابق، ص 123- 124.

وإذا كان التصور الديكارتي للألوهية يتحقق في الكامل واللامتناهي، وإذا كان التصور الكانطي للألوهية يتمثل في مبدأ كلي في الذهن الإنساني، فإن إله «دوركهايم» يتحقق في المبدأ الطوطمي، الذي يتشخص في الطوطم، ويتجلى في العشيرة، فعبد المجتمع نفسه. وأصبحت ذات المجتمع، كذات الله، موضوع عبادة وموضع قداسة. وأضحى المجتمع هو محور الإيمان وجوهر الدين والعقيدة، حيث إن خلود المجتمع هو الذي يفسّر خلود الله، وخلود النفس[1].

و«دوركهايم» في هذا التفسير الاجتماعي للألوهية، يريد أن يؤكد في إلحاح ظاهر، أن فكرة الله لم تصدر عن الإنسان الفرد، وإنما هي فكرة اجتماعية تمخضت عن مشاعر الجماعة وعقلها، وانساق «دوركهايم» في هذا الفهم الاجتماعي، فاعتبر أن فكرة الله متطورة أصلاً عن فكرة «عبادة الأسلاف»، وأن فكرة الألوهية قد تطورت عن أساطير الأبطال الذين عاشوا في المجتمع.

فالله عند البدائيين هو «الجد الأول» الذي يمجده البدائي، ويتحدث عنه كما يتحدث عن إنسان فذٍّ له قدرة خارقة، كان يعيش «كصائد عظيم» و«كساحر عليم» و«كمؤسس للقبيلة»، فالله في اعتقادهم هو الجد الأول للقبيلة، ومن هنا ترتبط فكرة الألوهية بالعقيدة الطوطمية.

ولذلك يرى «دوركهايم» أننا إذا ما أردنا أن نجد لأول مرة إلهاً مكوناً كله من عناصر إنسانية، فإنما نجده في المسيحية. ففي المسيحية الله إنسان لا بشكله المادي الذي تجسم فيه، ولكن بالأفكار والعواطف التي عبر عنها. فالمسيحية هي أول دين صور الله على أنه إنسان يلتقي فيه الجانبان اللاهوتي والناسوتي. وهذا تبرير دوركهايمي يبرر به تشخص الله في صورة إنسان في العقيدة الطوطمية[2].

«النفس» مصيرها وخلودها وعلاقتها بالبدن

عالج «دوركهايم» فكرة الألوهية فقد تطرق أيضاً إلى بحث مسألة النفس نظراً لأهميتها في كل فلسفات الدين، حين تكشف عن وجودها وروحانيتها، خلودها ومصيرها. فإن فكرة النفس هي على حد تعبير الفلسفة والفلاسفة منذ

---

(1) د. قباري محمد إسماعيل: علم الاجتماع والفلسفة، الجزء الثالث (الأخلاق والدين)، ط 1، 1989، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص 121- 123.

(2) المرجع نفسه، ص 123.

أفلاطون وأرسطو، هي المسألة الحائرة في كل ذهن حين يفكر، كيف جاء؟ ولم جاء؟ وإلى أين المصير؟

وحاول «دوركهايم» أن يعالج تلك المسألة الميتافيزيقية، وأن يقدم لها حلولاً من وجهة النظر الاجتماعية، فدرس مصادرها في المجتمعات البدائية، وكشف عن أصولها الأولية وماهيتها البدائية كما يتصورها بدائيو أستراليا.

ففي المجتمعات الأسترالية، يعتقد البدائي أن «النفس» تتميّز تماماً عن «البدن» باستقلالها عنه، وقد تنفصل عن بدنها وتتخلى عنه في حالات النوم أو الإغماء أو الموت، كما قد تغيب عنه في كثير من الأحيان. كما أن النفس حين تتحرر تماماً من البدن تستطيع أن تعيش طليقة في الغابات، وتتحرك حرة بين الأغصان والأشجار، كما أنها في حياتها تلك، يكون لها وجودها المستقل في العالم الآخر، فهي تأكل وتشرب وتقوم بعمليات الصيد والقنص.

والنفس عند البدائي الأسترالي قوة «غيبية» لا «مرئية»، لا يراها إلا الساحر، أو كبار السن من رجال القبيلة، فإن لديهم القدرة والمران على مشاهدتها، إذ إنها قوة لا مادية، لا عظام لها، كما يقول أفراد قبيلة ***Tully River*** فهي عندهم مادة أثيرية مثل الظل، أو النفس كما يتمثل في الشهيق والزفير. وتنتقل النفس بعد خروجها من بدنها إلى عالم الأرواح، حيث يرتبط مصيرها بأرواح الأجداد والأسلاف، وتقام الطقوس أحياناً عند «أرونتا» ***Arunta*** عند خروج الروح من الجسد حتى تغادره تماماً. ومن ثم غالباً ما تقام طقوس جنائزية، حيث يأكلون لحم الميت اعتقاداً منهم أنه يحتوي على مبدأ القداسة، الذي هو روح الميت أو نفسه، وقد يستخدمون عظامه كأدوات سحرية أو كموضوعات مقدسة. وتسمى النفس في حياتها عند أرونتا باسم ***Gumna*** أما بعد موتها فيطلقون عليها اسم ***Itana***.

والنفس عندهم خالدة، إذ إنها تحيا حياتها الأخرى في سعادة، إما على شاطئ البحيرة، أو في السماء خلف السحب، أو بعيداً فيما وراء البحر. ويكوّن عالم الأرواح والنفوس ويؤلف مجتمعاً له أهميته وخطورته إلى جانب مجتمع الأحياء، فقد يكون مصدراً للخير والنعمة أو مبعثاً للشر والنقمة.

وتعود النفس ثانية بعد أن تعيش في العالم الآخر لكي تتجسد، كما يقول

«سبنسر» *Spencer* و«جيلين» *Gillen*، في الأطفال حديثي العهد بالولادة، كما قد تظهر ثانية في صورة جد من الأسلاف القدماء، وهذا مما يؤكد خلود النفس في حياتها الأخرى، وفي تجسدها ثانية لاستعادة أمجاد الأسلاف وبطولاتهم، فإن الأسلاف هم «كائنات مقدسة»، بل هم آلهة القبيلة نفسها كما أشار دوركهايم[1].

وهناك تمايز قائم بين «عالم النفوس» و«عالم الأرواح»، حيث إن عالم الأرواح أسمى وأرفع، وهو يشتمل في الديانة الأسترالية البدائية، على شخوص خيالية، وأرواح أسطورية متسامية، وهي كائنات روحية تُعتبر محوراً أساسياً للمعتقدات الدينية، لأنها تتحقق في أرواح «الأبطال» و«الأسلاف» و«الآلهة».

وليست النفس روحاً، لأن النفس تنغلق في جسم وترتبط في بدن، يمكن أن تغادره في حالات الحلم أو الغفلة. ولكن الروح، على العكس من النفس، فهي حرة في انتقالها وحركتها المكانية، وفي وجودها المستقل، إلا أنها ترتبط في حركتها وانتقالها ببعض الأشياء والموضوعات الخاصة، وتكون لها بها أوثق اتصال.

ولذلك غالباً ما تعيش تلك الأرواح إلى جانب البحيرات أو الصخور أو الينابيع، أو قد تسكن بعض الأشجار أو النجوم. كما أنها قد تتجسد في الأطفال وتخصب النساء عن طريق الحلول في البدن. والنفس لا تصبح روحاً، إلا إذا انتقلت من البدن، وتحررت من الجسم، والموت هو وسيلتها للانتقال والتحرر.

ولقد اعترض «دوركهايم» على «تايلور» بصدد تفسيره لنشأة النفس الإنسانية حين يقتصر على ظاهرة الأحلام. فيرى تايلور أن فكرة النفس قد نشأت عن اعتقاد الإنسان البدائي في «الحياة المزدوجة» التي يحياها في يقظته من ناحية، وفي نومه من ناحية أخرى، وأن ظاهرة الأحلام هي التي تفسر للبدائي وجود النفس وحركتها وفاعليتها وانتقالها إلى مختلف الأماكن. ولكن «دوركهايم» يعترض على تلك الفكرة، على اعتبار أن الأساس الذي أقام عليه تايلور مذهبه غير صحيح. فإن فكرة تمايز النفس عن الجسد، هي من العمق والتعقيد بحيث لا يتوصل إليها العقل البدائي الساذج، فليس للبدائي تلك المخيلة القوية التي تستطيع أن ترى في النفس قوة أثيرية تنطلق من داخله. ولذلك يرى «دوركهايم» أن ظاهرة الأحلام ليست سبباً

---

[1] د. قباري محمد إسماعيل: المرجع السابق، ص 124- 125.

كافياً في صدور فكرة النفس وخلودها، حيث إن فكرة النفس، في رأي دوركهايم، إذا نظرنا إليها في ذاتها، نجدها لا تتضمن فكرة خلودها، بل ويبدو أنها قد تناقضها وتتعارض معها، فعلى الرغم من أن النفس تتمايز عن البدن، كما يقول تايلور، إلا أنها تتحد معه اتحاداً كلياً. فترتبط النفس بالبدن مدى الحياة، كما أنها تتأثر بما يصيب البدن من أمراض أو بما يثخنه من جراح، ويكون لذلك كله ردود أفعال مشابهة على البدن الذي تتحد به، ولذلك كان من الطبيعي أو البديهي أن تموت النفس بموت البدن. ولكن النفس خالدة - فما هو مصدر خلودها؟ وكيف نفسر بقاءها بعد الموت؟

يجيب «دوركهايم» عن تلك المسألة الفلسفية الصميمة، فيقدم لها حلاً اجتماعياً عثر عليه من دراسته لظاهرة عبادة الأسلاف. فهو يرى أن الأرواح حين تستقل عن أبدانها، إنما تحل ثانية وتتجسد في نفوس المواليد الجدد من الأطفال، فتبعث فيها حيوية الأجداد وبطولة الأسلاف. واستناداً إلى خلود نفوس الأجداد فإن أرواح الأسلاف هي المبدأ الطوطمي في انتشاره وتجزئته وانتقاله من جيل إلى جيل، تماماً كما تفعل البلازما الجرثومية في انتقالها وتوريثها وانتشارها. ولذلك ذهب «دوركهايم» إلى أن الاعتقاد في خلود النفس قد صدر أصلاً عن خلود الحياة الاجتماعية وأزلية البقاء الاجتماعي، حيث يموت أفراد العشيرة، ولكن تبقى العشيرة أبداً ويفنى الأشخاص، ولكن المجتمع يدوم ويحيا ويخلد. ولذلك كان «خلود المجتمع» هو التفسير الاجتماعي الدروكهايمي لفكرة «خلود النفس»[1].

الطوطمية كنظرية كوزمولوجية في الوجود

استناداً إلى تلك المصادر الطوطمية لفكرة الألوهية، ونشأة النفس وخلودها، حاول «دوركهايم» أن يجعل من الطوطمية مذهباً في الوجود، باعتبارها صورة أولية لفجر الدين الإنساني وطفولته، ذلك الدين البدائي الذي استطاع كأي دين من الأديان أن يكشف عن معنى الكون، وأن يضع للعالم تصوراً عاماً يتقبله العقل البدائي. ولذلك أكد «دوركهايم» أن نظام الكون في المجتمعات البدائية ليس إلا

---

[1] المرجع السابق، ص 127- 128.

صورة متطابقة مع النظام الاجتماعي. فالقبيلة وهي الوحدة الاجتماعية البدائية الكبرى، تنشطر إلى بطون أو اتحادات *phratries*، وتنقسم البطون إلى عشائر *clans*، وإلى جانب تلك الأقسام الاجتماعية البنائية، فإن كل شيء من أشياء العالم، وكل بقعة من بقاع الكون، وكل نوع من أنواع الحيوان والنبات، وكل نهر وكل جبل، إنما تكون جميعها امتداداً طبيعياً للقبيلة، باعتبارها أجزاء أو عناصر تنتسب كلية إلى عالم القبيلة في رحابته وسعته.

فالقبيلة لا تضم في بنائها جملة البطون والعشائر والأفراد فحسب، بل وتشتمل على الكون بأجمعه، وفي جوف ذلك الكون الذي هو كون القبيلة تلتئم الأحياء والأشياء. ولذلك يعتقد البدائي، كما يقول «فيزون» *L. Fison*، أن القبيلة هي «العالم» *Le Monde*، وأنه كفرد ينتسب إلى أحد أقسامها، وأن كل الأشياء الحية أو غير الحية، إنما هي أجزاء من القبيلة، وكأنها أجزاء أو عناصر تتألف منها القبيلة. ولقد استخلص «دوركهايم» من ذلك أن الطوطمية هي مذهب في الوجود، كما أنها نظرية كوزمولوجية (كونية) تفسر مقولات «الله» و«النفس» و«العالم». وإذا كانت حقائق الدين الرئيسية، تلك الحقائق الأنطولوجية التي تدور حول وجود الله والنفس والعالم، هي حقائق اجتماعية، فإن الدين عند دوركهايم، هو الحقيقة الأولية التي صدرت عن المجتمع، وفي أحضان الدين انبثقت سائر الفلسفات والعلوم. فالدين إذن، عند دوركهايم، حقيقة اجتماعية، وليس حقيقة تجريبية، كما يدعي «ماكس مولر» *Max Müller*، حين أخذ بالمبدأ التجريبي القديم: «لا شيء في العقل ما لم يكن من قبل في الحس». أخذ مولر هذا المبدأ التجريبي وطبقه على الدين، باعتباره ظاهرة حسية تجريبية، حيث إن ظواهر الطبيعة، هي التي تثير الفكر الديني حين يتأملها الإنسان، فيصيبه الدهش ويلحقه العجب والبهر. ولذلك كانت الطبيعة عند «مولر» هي مصدر الإحساس الديني بما يحويه من رهبة وخوف، وما يتسم به من دهشة وإعجاب، وعن هذا الإحساس التجريبي أو الطبيعي فاض الدين، وعن تلك الانفعالات الحسية من دهشة وخوف وإعجاب صدرت التصورات الدينية. ولقد اعترض «دوركهايم» على «ماكس مولر» الذي التفت إلى الطبيعة وإلى الدين كحقيقة تجريبية، وذهب «دوركهايم» إلى أن الإحساسات التجريبية أو

الطبيعية، ليست إلا إحساسات عابرة مؤقتة، ولا يمكن اعتبارها مصدراً دينياً لمظاهر ثابتة وطقوس دائمة. كما أن سياق الطبيعة هو سياق منتظم متناسق، والتناسق لا يوحي بالمشاعر الدينية القوية. وكذلك ليس للبدائي القدرة على التفكير والتأمل في تلك المظاهر المتناسقة المرتبة، واستكشاف الدين في هذا النظام الطبيعي الرتيب، ثم إنه لا يكفي على الإطلاق أن نعجب بشيء لكي نعتبره مقدساً، إنما ينبغي أن نميّز تمام التمييز بين انفعالات الدهشة والإعجاب، وبين الشعور الديني والتصورات الدينية. فليس الدين حقيقة تجريبية كما يدعي «ماكس مولر»، وإنما هو حقيقة اجتماعية تمتاز بثباتها وعمومها في كل المجتمعات الإنسانية، ولها وظيفتها ودورها في البناء الاجتماعي كحقيقة عينية يمكن مشاهدتها ودراستها من وجهة النظر البنائية التكاملية، وفي ضوء مناهج الأنثروبولوجيا الوظيفية.

وفي هذا الصدد لقد درس «بريستياني» ***Jean G. Peristiany***، الدين عند «الكبسيج» ***Kipsigis***، وتتبع الظاهرة الدينية في هذا المجتمع البدائي، عن طريق الدراسة الأثنوغرافية لطقوسهم وصلواتهم التي يقيمونها للإله «آسيس» ***Asis***. كما طبَّق رادكليف براون ذلك المنهج الوظيفي التكاملي في دراسة الدين الأندماني من خلال مشاهدة الجوانب الخارجية للشعائر والطقوس الأندمانية وملاحظة الجوانب العملية والسلوكية للآثار التي تظهر في عواطف الأفراد وأفكارهم وسلوكهم. وحدد رادكليف براون معالم منهجه في دراسة الدين من وجهة النظر البنائية في محاضرته المشهورة عن «الدين والمجتمع». وفي تلك المحاضرة يحدد تلك القواعد المنهجية التي تتبع دراسة الظاهرة الدينية، تلك التي تبدأ بدراسة المظاهر السلوكية والعملية التي تدور حول الشعائر والطقوس الدينية، والنظر إلى السلوك الإنساني الديني على أنه سلوك ناجم عن عواطف جمعية، تظهر في طقوس، وتتحقق في عبادات، ويعبّر عنها في شعائر. ولا يقتصر براون على مجرد الوصف الأثنوغرافي، بل إنه يؤكد أهمية اختبار السلوك الديني، ويضعه تحت محك التجربة، فيتابع المشاهدات والملاحظات، أثناء الاحتفالات الدينية، ويدرس ذلك التواتر القائم في أوقات الشعائر والطقوس، ويلاحظ كل شعيرة دينية على حدة، ويدرس وظيفتها أو معناها، وما تشير إليه ودورها في النسق الديني. ثم يربط رادكليف براون ذلك كله

بدراسة الشعائر الدينية في ضوء البناء الاجتماعي، ووظيفة الدين والطقوس في الميكانيزم الاجتماعي، وبذلك تصبح الظاهرة الدينية ظاهرة اجتماعية يمكن دراستها باستخدام مناهج العلوم الطبيعية، وتلك هي غاية النزعة الوضعية الاجتماعية التي تمثلها مدرسة «إميل دوركهايم»[1].

الدين الطوطمي في ميزان النقد

ونحن نسأل «دوركهايم» بدورنا، لماذا لا يقرر أن العاطفة الدينية هي فردية خالصة، وهي في الوقت نفسه خط مشترك بين سائر البشر؟

حدثنا «دوركهايم» عن صورة أولية لشكل بدائي للدين، هو الدين الطوطمي، إلا أننا نجد أن الأب «شميت» *W. Schmidt* قد عقد فصلاً كاملاً عن الطوطمية في كتابه المشهور الذي نشره عن أصل الدين ونشأته: *The Origin and Growth of Religion: Facts and Theories*. وذهب «شميت» إلى أن الطوطمية ظاهرة غامضة، إذا ما نظرنا إليها كظاهرة دينية. فلقد ظهرت الطوطمية لأول مرة كمعتقد ديني في كتابات «لانج» الذي اصطنع الاصطلاح **exogamy** (الزواج الخارجي) وربطه بفكرة الدين. ثم ذاعت كلمة الطوطمية في دراسات «لوبوك» *Lubbock* و«تايلور» *Tylor* و«سبنسر» *Spencer*، ولكن هؤلاء جميعاً، لم يتمكنوا، في رأي شميت، من التوصل إلى فهم دقيق لتلك الظاهرة الطوطمية المعقدة، تلك الظاهرة التي نعاني حتى اليوم صعوبة واضحة في فهمها، وسبر غورها، وبخاصة في مسألة علاقة الظاهرة الطوطمية بالدين.

لقد أكد «جيمس فريزر» في دراساته الأولى المبكرة أن الطوطمية ظاهرة (نصف دينية)، كما أنها (نصف اجتماعية) فعكف «فريزر» على دراسة أشكالها الدينية والاجتماعية، ولكنه عاد ثانية وحدثنا عن العلاقة بين الطوطمية وأصولها (السحرية)، وفي أواخر حياته العلمية، اعتبر السحر (مرحلة أولية) سابقة على الدين[2].

ويرى «شميت» أن «فريزر» قد عدَّ نفسه من أصحاب نظرية السحر، حين أكد أن الطوطمية الخالصة ليست من الدين في شيء، فلم يكن الطوطم موضوع عبادة

---

[1] د. قباري محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص 130-131.

[2] Schmidt. W, The Origin and Growth of Religion: Facts and Theories, trans. by H. J. Rose, London 1931, p.103.

أو صلاة، وهنا يتفق «شميت» مع «فريزر» بأن الطوطمية ظاهرة (لا دينية) إلا أنه يختلف معه في مسألة سبق السحر على الدين. وفي هذا الصدد يتفق «باستيد» *R. Bastide* مع «شميت» فانتقد «دوركهايم» حين أقام من الطوطم إلهاً، وجعل من الطوطمية ديانة تؤله المجتمع. إلا أن الطوطم كما يقول «باستيد» ليس إلا موضعاً للاحترام العائلي الذي يشبه احترام الابن لأبيه ولذلك يتهدم الركن الديني في الطوطمية وتصبح الظاهرة الطوطمية لا تتعلق بالنظام الديني، بقدر ما تتعلق بالنظام العائلي أو الشعائري. فقد اتصلت الطوطمية اتصالاً وثيقاً بنظم العشيرة والاتحاد والقبيلة، وهي نظم اجتماعية خالصة لا صلة لها بالدين، وبذلك يمكننا حذف العنصر الديني من الطوطمية لأن الشواهد تؤكد (لا دينية الطوطمية)، وانعدام الصلة بين الطوطمية والدين، حيث إن الظاهرة الطوطمية تتعلق بالبناء العائلي والنظام القبلي دون أن تتأكد الرابطة بينها وبين النظام الديني. وعلى هذا الأساس أثار شميت الشكوك حول الأصل الديني للظاهرة الطوطمية واعترض على «دوركهايم» حين اقتصر على دراسة صورة واحدة من صور الطوطمية، ولم يقدم دراسة مقارنة مفصلة لسائر الأشكال الطوطمية في العالم الاجتماعي على الرغم من أن «المنهج المقارن» هو حجر الزاوية في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية، فلماذا ينحصر «دوركهايم» في الطوطمية الأسترالية وحدها؟ وإذا كان «دوركهايم» قد اعتبر قبائل أستراليا الوسطى هي أقدم الأجناس البشرية إلا أن تاريخ الأجناس قد أثبت أن هناك صوراً أخرى للأجناس البشرية قد سبقت قبائل أستراليا الوسطى و«الأرونتا» *Arunta* بالذات، وهي التي أقام «دوركهايم» عليها دراسته المركزة، لم تكن أقدم جماعة إنسانية ولكنها تمثل الطور السادس للعقلية الاسترالية، حيث إن قبائل أستراليا الجنوبية الشرقية هي أقدم قبائل أستراليا إطلاقاً، أما القبائل الوسطى وخاصة «الأرونتا» هي أحدثها وأكثرها تقدماً. والطوطمية لا تظهر إطلاقاً في هذه القبائل الأسترالية الجنوبية الشرقية، فقد ثبت أنثروبولوجياً أنها مكتسبة في عصر متأخر وتتحقق صورة العقيدة لدى هذه القبائل الأولية في صورة الكائن أو الإله الأسمى وهي عندهم صورة واضحة محددة ومستقلة تماماً عن الصورة الطوطمية، ومن هنا تنهدم وجهة النظر الدوركهايمية في (الصور الأولية للحياة الدينية)[1].

---

[1] د. قباري محمد إسماعيل: علم الاجتماع والفلسفة، مرجع سابق، ص 160-162.